قراءة في كتاب:

سيف الله خالد ابن الوليد رضي الله عنه

■ للمؤلف الباكستاني أ. ي. أكرم

عرض الاستاذ مصطفى هديسب

يعد هذا الكتاب من أفضل ما كتب حديثاً عن بطل الاسلام العسكري الفذ خالد بن الوليد المخزومي رضي الله عنه، كتبه الجنرال الباكستاني أ. ي اكرم في عام ١٩٦٩، وهو استاذ مادة التاريخ العسكري في كلية الأركان والقيادة في باكستان في الستينيات من القرن الماضي، وقام بترجمته الى العربية العميد الركن صبحي الجابي.

وقد امضى هذا المؤلف خمس سنوات وقطع (٤٠٠٠) ميل ليضع كتابه هذا عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، فلقد زار المملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان والعراق، ليقف على كل مكان سار عليه خالد بن الوليد او قاتل فيه او شهد مولده او جزءً من حياته رضي الله عنه.

وزار مكة، وجاء موسم الحج هناك فأدى فريضة الحج في ضيافة الحكومة السعودية في عام ١٩٦٩م، وزار في سوريا ضريح خالد رضي الله عنه وصلى في مسجده، وسلم على بطل الاسلام وزار كل ميدان من ميادين المعارك التي خاضها خالد، وكان في كل بلد عربي زاره موضع حفاوة وتكريم ومساعدة ليؤدي مهمته، مما انطلق لسانه بالثناء على حكومات البلاد العربية التي أسدت له العون في مهمته فجاء كتابه

الرائع عن سيف الله..!

قرأت عدة كتب عن خالد بن الوليد، وكان لكل منها منهج في الحديث عنه، او الكشف عن بعض جوانب شخصيته او عبقريته، ولكن هذا الكتاب شدني اليه لأتمه في أيام تلاحقت القراءة فيه ليلاً نهاراً.

وعزمت عندما انهيته ان أعيد القراءة لأكتب عنه هذا المقال!! وعدت الى ملاحظاتي والى ما انتقيته من أخبار خاصة وردت في الكتاب، ولكني آثرت ان اجمل هذه المنتقيات في مقال آخر ان شاء الله لأبقي على سبب ببطل الاسلام رضي الله عنه.

جعل المؤلف الكتاب في اربعة أجزاء: في زمن النبي ﷺ، وفي زمن حروب الردة، وفتح العراق، وفتح بلاد الشام، وقد بلغ عدد صفحات الكتاب (٥٣٤) صفحة من القطع المتوسط.

ألفه كاتبه باللغة الانجليزية، ولكنني قرأته في ترجمته العربية، وقد انجزه صاحبه، كما قلنا: بعد خمس سنوات من البحث الذي قاده الى لندن ايضاً الى جانب البلاد العربية التي زارها، وولد الكتاب في العام ١٩٦٩م.

ولد خالد بن الوليد رضي الله عنه في مكة المكرمة، وكان ابوه الوليد بن المغيرة من أثرياء مكة ووجهائها المعدودين، ولخالد رضي الله عنه اربعة اخوة واختان، وقد نشأ في البادية كعادة القرشيين حيث يرسلون ابناءهم الى هناك ليكتسبوا اللغة والقوة حتى السنة الخامسة، كان طوله رضي الله عنه (١٨٠سم) وعلى وجهه الوسيم بقايا ندوب من جدري أصيب به في صغره.

وكان رضي الله عنه من اهل اليسر في مكة، فأبوه تاجر وكان مسرفاً في انفاق ماله، يوزعه وينفقه دون حرص! وتعلم خالد رضي الله عنه ركوب الخيل، وفنون استخدام الرمح والسيف، وقد كانت لبني مخزوم «الاعنة» اي توفير المال والسلاح لحرب اهل مكة ضد اعدائها، فأكسبه ذلك معرفة بالحرب والسلاح مع استعداده الطبيعي مما جعله ماهراً وحاذقاً وجريئاً في فن الحرب!.

ولم يسلم خالد رضي الله عنه في بداية انبعاث الاسلام، وكان والده من ألد أعداء الدين الجديد، وكان خالد في «بدر وأُحد» محارباً في صفوف المشركين، ولكن رجلاً كخالد في عقله الراجح لم يكن ليخفى عليه صدق رسالة الاسلام، فقرر ان يلتحق بالدين الجديد، وأخذ طريقه الى المدينة وأعلن اسلامه بين يدي رسول الله ﷺ وقد شهد له رسول الله ﷺ اذ قال: «كنت

ارى لك عقلاً لا يسلمك الا لخير».

كان اسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه في السنة الثامنة للهجرة بعد غزوة الخندق حيث فشلت فيها الأحزاب وعلى رأسها قريش فشلاً ذريعاً، فغادرت ميدان المعركة خائبة، لم يمس المسلمون فيها بسوء!.

وأصبح خالد رضي الله عنه بعد ذلك عضواً في جماعة الاسلام، ولكن خالداً رضي الله عنه يُعرف له فضله وقدراته العسكرية الفذة، وقد استولى على تفكيره كما كان غيره من المسلمين نصرة هذا الدين واطاعة رسول الاسلام ﷺ طلباً لأجر الآخرة والفوز بالجنة، فجاء اولئك العباقرة -بما وقر في نفوسهم من ايمان- وهو يقين، بروائع الأعمال وجلائل الأفعال.

لقد حرروا العالم من الشرك ورفعوا راية التوحيد في الأرض على ارادة الله تعالى ومنهاجه ودينه الذي بعث به نبي الاسلام محمداً ﷺ.

◆ نجم خالد رضي الله عنه يسطع في مؤتة:

جهز رسول الله ﷺ جيشاً لتاديب قبيلة غسان وجعل عليه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فإن اصيب فجعفر بن ابي طالب رضي الله عنه، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولاقى هذا الجيش وعدده (٣٠٠٠) جندي جيش الروم وعدده (١٠-١٥) ألف مقاتل، وقد نفى المؤلف رقم الـ (١٠٠) الف الذي يردده المؤرخون في مؤتة من ارض الأردن.

وقتل القادة رضي الله عنهم الذين سماهم رسول الله ﷺ، وصار خالد رضي الله عنه قائداً للجيش، ولما رأى الموقف في صالح الروم، قرر الانسحاب لينقذ جيش المسلمين، وعاد بالجيش الى المدينة وسماهم المستقبلون «الفرار» ولكن رسول الله ﷺ سماهم «الكرار» وقال لخالد رضي الله عنه: «انك سيف من سيوف الله سله على المشركين» ودعا له بالنصر، ومن يومها وخالد يلقب بسيف الله!.

◆ الردة حرب شرسة ضرورس:

بدأت مظاهر الردة في أواخر عهد رسول الله ﷺ، ولكن ما ان تسامع العرب بوفاته ﷺ حتى نفضت اكثر القبائل في طول الجزيرة وعرضها عهدها مع الله ورسوله ﷺ، فمنها من ارتد كلية الى الشرك والكفر، ومنها من رفض دفع الزكاة، ومنها من انقص الصلاة، ومنها من رفض القيادة الجديدة في المدينة، وادعى بعضهم النبوة وكانت فتنة كقطع الليل الأسود!.

وكان ابو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة

المسلمين وقائدهم، رجل المهمة في اعادة العرب الى الاسلام، ليعم نوره أجزاء العالم المعروف حينذاك وقد صار مهدداً بالزوال!

وقد رفض ابو بكر رضي الله عنه ان يقبل من الناس الا الاسلام متكاملاً كما بلغه رسول الله ﷺ، وقام بنفسه بقيادة بعض من ثبت على الاسلام، وحارب به من هم حول المدينة من المرتدين «كان ثبات قلب ابي بكر رضي الله عنه واصراره على قتال المرتدين، وقوة عزمه في ذلك مثار اعجاب المسلمين، فقال رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ في الغار في رحلة الهجرة فرأى ما بي (قلقه) فقال ﷺ: «لا عليك يا ابا بكر، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام»! فوالله ما عرفت الخوف بعد ذلك.

ويجهز ابو بكر رضي الله عنه (١١) جيشاً لقتال المرتدين في ارض العرب، ولا يشترط عليهم الا العودة الى الاسلام كله، وعقاب من قتل او عذب احداً من المسلمين، وكان احد هذه الجيوش بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، لقد ابلى بلاء عظيماً في محاربة المرتدين، وعودة راية التوحيد خفاقة في سماء الجزيرة العربية، وحفظ الدولة الاسلامية ووحدتها من الزوال، وكانت انتصاراتهم على الشرك هي طريق الانطلاق في ارجاء الارض للدعوة الى عبادة الله وحده!.

❖ ماذا فعل خالد رضي الله عنه؟:

أُسند الى خالد رضي الله عنه التوجه الى طليحة بن خويلد في البزاخة، ثم الى مالك بن نويرة في البطاح، وهما شرق المدينة، وكان رضي الله عنه اول المغادرين الى اهدافهم، وتبعه عكرمة بن ابي جهل رضي الله عنه، ولم يذهب الباقون الا بعد ذلك بأسابيع، او أشهر، حتى يثبت نجاح خالد وعكرمة رضي الله عنهما، وارسل ابو بكر رضي الله عنه مبعوثين الى القبائل المرتدة يدعوها الى الاسلام او مواجهة العواقب الوخيمة!.

سار خالد رضي الله عنه وبلغ جيشه (٤) اربعة آلاف وكان معه عدي بن حاتم رضي الله عنه رسولاً الى قومه طيء ليعيدهم الى الاسلام، ووصلوا الى ارض طيء، واستطاع عدي ان يضمهم وبعض قبيلة جديلة، فانضم منهم اكثر من الف مقاتل الى قوات خالد، واتجه الى بزاخة، لقتال طليحة الاسدي المتنبئ المرتد!.

اصطدمت طلائع قوات خالد ببعض مقاتلي طليحة، وكان فيهم حبال شقيق طليحة فقتله المسلمون، وثار طليحة لأخيه، فقتل اثنين من المسلمين هما عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم رضي الله عنهما.

صار جيش خالد (٦) ستة آلاف مقاتل، وفي سهل بزاخة وأمام السفوح الجنوبية الشرقية لجبال آجا، وهو الآن على بعد (٢٥) ميلاً جنوب غربي مدينة حائل، انتهت معركة بزاخة بانتصار المسلمين، وهرب طليحة، وعادت بنو اسد الى الاسلام، ثم عاد طليحة وأسلم، واعتمر في خلافة ابي بكر رضي الله عنه وطارد خالد فلول المنهزمين ومنهم بنو فزارة، وقد قاتلوا لكن خالداً رضي الله عنه هزمهم واخذ عيينة بن حصن زعيمهم اسيراً وعفا ابو بكر رضي الله عنه عن عيينة، وكان ذلك في «غمرة».

وواصل خالد رضي الله عنه تقدمه الى «النقرة» حيث قبيلة سليم، وهزمت بنو سليم وأخذ «ابو شجرة» زعيمها اسيراً وتوسل الى ابي بكر فعفا عنه وعاد الى الاسلام، وجاءت قبائل كثيرة الى خالد في بزاخة تعلن عودتها الى الاسلام، فلم يقبل خالد الا ان يأتوه بالذين قتلوا ومثلوا بالمسلمين من افراد قبائلهم، فجاؤوا بهم فقتلهم بنفس ما فعلوا وكتب خالد الى ابي بكر رضي الله عنه يعلمه بكل ما حدث، ورد الخليفة على خالد بكتاب يشكره على ما انجز ويهنئه بالانتصار ويثني على خطواته.

وبعد ذلك توجه خالد رضي الله عنه الى «ظفر» لمواجهة سلمى ابنة مالك بن حذيفة، وكان ابوها من زعماء غطفان، وهي ابنة عم عيينة بن حصن الغزاري، وكانت امها قرفة قد حاربت المسلمين زمن النبي ﷺ وتم اسرها وقتلت، وفي هذه المعركة أسرت سلمى، واهداها النبي ﷺ الى زوجته عائشة رضي الله تعالى عنها ثم اعتقها وعادت الى قبيلتها وها هي اليوم تواجه قوات خالد رضي الله عنه!.

وكانت جموع سلمى عند «ظفر» في الطرف الغربي لسلسلة جبال سلمى، وقابل خالد جيش المرتدين في ظفر، وكانت معركة قاسية، هزم فيها المرتدون وقتلت سلمى وقد وجد حولها (١٠٠) جثة دافعت عنها، واستراح جيش خالد استعداداً لقتال مالك بن نويرة.

وأثناء ذلك جاء الفجاءة اياس بن عبد ياليل الى ابي بكر رضي الله عنه وابدى استعداده لمحاربة المرتدين، فأعطاه ابو بكر سلاحاً فاستخدمه هذا الرجل في قتل المسلم وغير المسلم لأغراضه الخاصة، وقد امر ابو بكر رضي الله عنه طريفة بن حاجز ان يلحق بفجاءة واستطاع ان يعيده الى المدينة.

◆ البطاح ومالك بن نويرة:

بعد ان انتهى خالد من بزاخة قرر ان يسير الى مالك بن نويرة في البطاح،

فرفض بعض جنودة من الانصار محتجين بعهد الخليفة حتى يكتب اليهم ولكن خالداً رفض ذلك، ومضى بدونهم، ولكنهم ندموا بعد ذلك ثم لحقوا به، وعندما وصل خالد رضي الله عنه البطاح لم يجد احداً، ارسل خالد سراياه في تعقب المرتدين، وامرهم بالصلاة، فإن وجدوا في الناس الأذان والصلاة كفوا عنهم، ونجحت سرية ضرار بن الأزور في أسر مالك وزوجته ليلى وبعض اعوانه، واستاقوهم الى خالد، وجرى حوار قال فيه مالك لخالد رضي الله عنه: «سيدك» ومراجعنا تقول: «صاحبك» وهي تعني رسول الله، فرد عليه خالد رضي الله عنه: الا تراه بصاحبك» وثم قُتل مالك بسيف ضرار، وأخذ أبو قتادة زمام فرسه واتجه الى المدينة ليشكو خالداً الى ابي بكر: بأن خالداً قتل مالكاً وهو مسلم»!

واستدعي خالد الى المدينة وعنفه ابو بكر رضي الله عنه على زواجه من ليلى، وعلى قتله مالك، فدفع الخليفة دية مالك، وابقى خالداً على عمله وعذره! وقد كان موقف عمر غير ذلك من خالد، ولم يؤثر عليه ذلك بشيء.

❖ معركة اليمامة مع مسيلمة الكذاب:

عين عكرمة بن ابي جهل رضي الله عنه قائداً لأحد الجيوش الأحد عشر، وعهد اليه بالذهاب الى مسيلمة على الا يتورط في قتال معه حتى يأتيه خالد، وكان الهدف من ذلك ابقاء مسيلمة في مكانه لئلا ينجد القبائل التي يحاربها خالد رضي الله عنه، لم يصبر عكرمة على ما آمر، وهاجم قوات مسيلمة التي هزمته وجعلته يتراجع، ووقفت قوات شرحبيل خلفه بمسافة كافية! وجاءت رسالة ابو بكر لعكرمة: «لا أرينك ولا تراني على حالها، لا ترجع ولا توهن الناس، امض حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما اهل عمان ومهرة».

وسار عكرمة الى عمان، وظل شرحبيل في اليمامة، وكتب اليه ابو بكر: «ابق حيث انت حتى يأتيك أمري».

ثم صار جيش شرحبيل في جيش خالد وتحت امرته. سار خالد الى مسيلمة وبلغ جيشه (١٣) الفاً وعلم خالد ان مسيلمة يعسكر في سهل عقرباء عند الضفة الشمالية لوادي حنيفة، اتخذ خالد معسكره على الارض المرتفعة على بعد ميل واحد من جنوب الوادي ومن مكانه كان يرى سهل عقرباء كاملاً أمامه!!.

بلغ جيش مسيلمة (٤٠) الفاً وفقد مسيلمة مجاعة بن مرارة، وقد أسره

المسلمون وقتلوا من معه، وهو اكفأ قادة مسيلمة.

كان جيش مسيلمة على الضفة الشمالية لوادي حنيفة، وخلفهم سهل عقرباء، وبالسهل حديقة مسورة سميت فيما بعد بحديقة الموت، وعلى الضفة الجنوبية كان جيش خالد رضي الله عنه ينتشر على مسافة (٣) أميال، نظم مسيلمة جيشه، فجعل نفسه على القلب، والجناح الايسر بقيادة الرجال، والايمن بقيادة الطفيل، ونظم خالد جيشه فكان القلب تحت امرته، والجناح الايسر بإمرة ابي حذيفة، والايمن بقيادة زيد بن الخطاب.

وكان في الجيش المسلم زيد بن الخطاب وعبد الله بن عمر وابو دجانة وهو من درأ السهام بجسمه عن النبي ﷺ في أحد، وعبد الله بن أبي بكر ومعاوية بن ابي سفيان وأم عمارة ووحشي، الماهر في استخدام الحربة!!.

بدأت المعركة في صباح احد الايام الباردة في الاسبوع الثالث من كانون الاول عام ٦٣٢م، الاول من شوال عام (١١) بعد الهجرة، بدأ خالد رضي الله عنه المعركة، واندفع المسلمون وقتلوا من المرتدين اعداداً هائلة ولم يتراجع جيش مسيلمة!.

وأخذ زمام المبادرة واخذ يهاجم جيش المسلمين، وتراجع المسلمون ولم يصمدوا حتى دخلوا معسكر المسلمين ومزقوا خيمة خالد وفيها زوجته، ولولا ان اجارها مجاعة لقتلوها وكان مكبلاً بالحديد، وقد شغل المرتدون بالغنائم عن فك أسره!.

اعاد خالد تنظيم جيشه، وتمايزت وحداته حسب قبائل المقاتلين، وبدأ القتال مرة أخرى ثم هدأ، وطلب المسلمون المبارزة، فقتل زيد بن الخطاب احد قواد مسيلمة، وطلب خالد المبارزة فجاءه من قتله، ثم جاء مسيلمة بطلب من خالد وحاول خالد قتل مسيلمة ولكنه هرب الى جيشه وسلم.

وتضعضعت صفوف المرتدين، وصاح صائحهم: الى الحديقة هرباً من القتل، واندفعوا الى الحديقة وعلى رأسهم مسيلمة لعلهم ينجون من سيوف المسلمين، واغلقوا باب الحديقة بإحكام، وتقدم الصفوف البراء بن مالك رضي الله عنه، انه الرجل الشجاع الذي لا يخاف الموت، وهو مجاب الدعوة، قال: ارفعوني على السور، وبعد جدال رفعوه، وقفز من على السور داخل الحديقة، وقتل من اعترضه وفتح باب الحديقة على مصراعيه! وجرى في الحديقة قتال مرير، وسالت دماء كثيرة

وانهزم جيش مسيلمة شر هزيمة!.

قتل وحشي بحربته المعهودة مسيلمة، واجتز ابو دجانة رأس مسيلمة لكنه استشهد، بلغت خسائر جيش مسيلمة (٢١) ألفاً منهم (٧) آلاف في الحديقة، و (٧) آلاف في سهل عقرباء و (٧) آلاف في مطاردات ما بعد الهزيمة!! وكانت خسائر المسلمين (١٢) الف شهيد، (هكذا جاء في الكتاب، لكنهم في الحقيقة (١٢٠٠) فقط، نصفهم من المهاجرين والأنصار، وكان من الشهداء (٣٠٠) يحفظون القرآن كاملاً.

وقام مجاعة بن مرارة أسير خالد رضي الله عنه بدور في ابرام الصلح بين خالد وبني حنيفة، وكان مجاعة منحازاً لبني قومه، ولما عاتبه خالد قال: هم قومي!، وعاد الاحياء ممن بقي من بني حنيفة الى حظيرة الاسلام، يقول المؤلف: «**كانت معركة اليمامة اعنف معركة حدثت في التاريخ الاسلامي، فلم يسبق للمسلمين ان واجهوا قوة متفوقة مثلما حدث في هذه المعركة**» وفي اليوم الذي فتح فيه حصن اليمامة، وانتهى القتال، جلس خالد امام فسطاطه في المساء، وبجانبه مجاعة بن مرارة وكانا بمفردهما، التفت خالد الى مجاعة، وقال: زوجني ابنتك، قال له مجاعة: انك قاطع ظهري عند صاحبك (يعني ابا بكر) فقال خالد: أيها الرجل زوجني، وزوجه مجاعة ابنته، وجاءه كتاب الخليفة: «لعمري يا ابن ام خالد انك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم (١٢٠٠) من المسلمين لم يجف بعد»، فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: «هذا عمل الأعسر».

وجرت بعد ذلك معارك متفرقة مع قادة الفرق التي ارسلها ابو بكر رضي الله عنه حتى اخضعت كل قبائل العرب لسلطان الاسلام، وانتهت الردة، وعاد الاسلام الى الجزيرة.

لقد بدأت حروب الردة وانتهت خلال العام الحادي عشر الهجري واشرق فجر العام الثاني عشر في الثامن من آذار ٦٣٣م، على الجزيرة العربية وهي تحت سلطة الخليفة المركزية في المدينة.

كانت حروب الردة اكبر انتصار سياسي وعسكري لأبي بكر رضي الله عنه، ومع ان الخليفة حقق انجازات عسكرية جريئة بفتح العراق والشام، الا انه بإدارته الناجحة لحروب الردة قد قدم خدمة جليلة للاسلام، ان هذه الانجازات لم تكن ممكنة بدون ساعد سيف الله المسلول رضي الله عنه.